تأويل العبارة الصوفية
في شعر التجاني يوسف بشير

عبد القادر فيدوح ــ جامعة البحرين

- وعي الخارج
- وعي الذات
- وعي الكشف

وعي الخارج

تجمع معظم الدراسات أن الشاعر التجاني[1] يوسف بشير عاش في ضيق من كل شيء، لفظه الواقع بكل معانيه ، وأثقل العبء النفسي كاهله، أو بالأحرى لفظ الواقع بما فيه، و" ربما كان التجاني يوسف بشير هو الشاعر السوداني الوحيد الذي يذكر السودانيون مأساته بعطف نبيل ، شارف الشعور القومي، بالرغم من شعره العصيّ، بعد أن عاش حياة مضيّعة لفظته إلى الهوامش السفلى في مدينة (أم درمان) ليعمل في محطات الوقود بين الفقر والحرمان حتى فارق الحياة التي نذرها للشعر، فكان هو و(محمد المهدي المجذوب) أصفى شاعرين في السودان[2] ؛ ولأن الشاعر عاش ضنكا في حياته ، حاملا هموم حياة تتضح بالأحزان، كان عليه أن يعيش ملحمة هذه الحياة الدرامية التي لم ترحمه، وما كانت ترسمه من ملاحم

---

[1] يوسف بشير التجاني (١٩١٢-١٩٣٧) شاعر متصوف من السودان " أم درمان " ، عمل في الصحافة ، وفي شركة شل للبترول، صدر له ديوان واحد بعنوان : **إشراقة** . وتروي الدراسات أن الديوان جمع ١٩٣٤ ، لكن المخابرات البريطانية حالت دون نشره . لم يكمل دراسته في المعهد العلمي بعد فصله لأسباب سياسية ، وقيل إنه كان من المعجبين لشعر شوقي ، أيما إعجاب ، حتى أنه وصفه ببعض الدلالات القرآنية ، فما كان من مدير المعهد إلا أن فصله من مواصلة التعليم بعد أن أخذ خصومه يؤلبون عليه . وكان مما قاله في وصف مكانة المعهد بعد فصله في قصيدة له بعنوان " المعهد العلمي " :

السحر فيك وفيك من أسبابه * دعة المدل بعبقري شبابه**
يا معهدي ومحط عهد صباي من * دار تطرق عن شباب نابه**
اليوم يدفعنى الحنين فانثني ***ولهان مضطرباً الى أعتابه
سبق الهوى عيني فى مضماره ***وجرى واجفل خاطرى من بابه
ودعت غض صباي تحت ظلاله* ودفنت بيض سنى فى محرابه**
ولقيت من عنت الزيود مشاكلاً ***وبكيت من(عمرو.) وإعرابه
هو معهدى ولئن حفظت صنيعه* فانا ابن سرحته الذى غنى به**
فاعيذ ناشئة التقى ان يُرجفوا*بفتىً يمُت اليه فى أحسابه**
مازلت أكبِر فى الشباب وأغتدى*وأروح بين بخ ويا مرحى به**
حتى رُميت ولست أول كوكب * نفس الزمان عليه فضل شهابه**
قالوا وأرجفت النفوس وأوجفت*هلعاً وهاج وماج قسور غابه**
كفر ابن يوسف من شقى واعتدى*وبغى..ولست بعابئ أو آبه**
قالو احرقوه بل اصلبوه بل أنسفو * للريح ناجس عظمه وإهابه**
ولو أن فوق الموت متلمس* للمرء مُد الي من أسبابه !!**

الديوان، ص ٧٧-٧٨ . والنصوص المستشهد بها ــ معظمها ــ من الديوان نفسه .

[2] ينظر ، محمد جميل أحمد : الشاعر السوداني التجاني يوسف بشير.. إلى أحمد عبدالمطلب قراءة استعادية، الرابط www.alriyadh.com

مأساوية على أجبنة المُعوزين ، عندما كانوا يحملون أصداء الحـــزن ، والوجـــع يمتـــد فـــي مسيرتهم ؛ الأمر الذي انعكس على تجربة الشاعر التجاني بكتابة مغايرة ، قطّر فيها شـــعرا صافيا تتكشف فيه المعاني عن نُسغ مركزي ، صافٍ ، كما لو كانت نصوصه نصا واحـــدا ، فالتجاني الذي ظل يمارس ضغطا متواصلا لمأزقه الوجودي في بيئة شديدة المحافظة، فجّـــر في الشعر تجربته بلعبة لغوية أبدعت جدلاً جمالياً (إن صح التعبير)، صاغ فيه أسئلة الوجـــود والعدم دون أن يحيلنا إلي كد ذهني، بل انطوى على شفافية وتماسك نسخ المسافة الوهمية بينه وبين نصّه حتى قال في وقت مبكر ما يشبه الوصية، لمن يكتب عنه.[٣]

أنا إن مت فالتمسني في شعـــ ري تجدني مدثرا برقاعه[٤]

لقد امتد الوجع يصارع حياة الشاعر ، هذا الوجع الذي أصبح يوازي صوته، وينقـــل حسه الباطني واستيهاماته . كان يسير في تيه وضلال، الأمر حوله وكأنه يعيش عالما غريبا عنه على نحو ما جاء في قوله :

أنا وحدي كنت استجلي من العالم همسه
أسمع الخطرة في الـــذر واستبطن حســـه

وليس غريبا أن يكون شعر التجاني بهذا المستوى من الحس المفعم بأصداء الحزن ، نظرا للإسهامات المبكرة من السودانيين في تحول القصيدة من الرتابة إلى التجديـــد . ولعـــل التجاني أحد هؤلاء الذي وثقوا بصماتهم في تكوين نمط الشعر الحيث ، ويعتبر شامة أضـــفت على القصيدة الحديثة جمالا وشعورا بالانتماء إلى المشاعر الوجدانية ، وقد اعتبرت كثير من الدراسات أن عددا من الشاعراء البارزين الذين ظهروا على الساحة من مجددي الشعر تأثروا به، سواء من داخل السودان أو من الوطن العربي ، من أمثال محمد الفيتوري، صلاح عبـــد الصبور الذي أشار في اعترافاته إلى تأثره به، بخاصة من حيث الرؤيا الكشفية في تشـــوفها الصوفي من خلال قصيدة " **الصوفي المعذب** " التي فاحت بإشـــارقاتها ، وأرجَـــت بعالمهـــا ،وفوحها ،على معانقة الكلي في قصائد عبد الصبور .

ويبدو، لنا ،من خلال تتبعنا لمسيرة التجاني، مدى معاناته النفسية التي عايشـــها قبـــل إدراكه معنى الحياة ، وهو فتى في مقتبل عمره يمثل حالة متفردة في الشعر العربي ، شـــأنه

---

[٣] المرجع السابق ، الرابط www.alriyadh.com

[٤] التجاني يوسف بشير ، ديوان " إشراقة " ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٤٦

في ذلك شأن الشابي ، في هذه الفترة المبكرة من حركة الشعر الحديث التي أفــرزت شــعرا مضمرا في نزوعه الصوفي ، على اعتبار أنه مر بتجربة وعي ناضجة ، ومــرآة للتجربــة الصادقة ، انطلاقا من إدراكه معنى الحياة في " **وعي الخارج** " المفعم بالتوقد ، بعد أن وصل معه الوعي إلى درجة عالية من الحكم على الأشياء بمنظور معرفي قائم على تجربة الــوعي الإبداعي المرتبط بالواقع الذي لفظه ، كما جاء في قوله يصف حاله في هذه الدنيا :

يا أديبا مضيعا من بني الدنيا بحسب الأديب محض انتجاعــــه

أنت يا رائد القريض وما أنــ ــت بسقط الورى ولا من رعاعه

أنت قيثارة الجديد بك استظهــ ــر من في الوجود سر متاعــه

أدب ملؤه الحياة وشعر مفعم بالسمــو فــي أوضاعــه

ضاع : ويح الذي يغار على الشــ ــعر ويح الأديب يوم ضياعــه

وهو الذي قال أيضا في القصيدة نفسها :

أنا إن مت فالتمسني في شعــ ــري تجدني مدثرا برقاعه

والشاعر التجاني ، شأنه في ذلك شأن كل الشعراء الذين حملوا على ذواتهم فلسفة هذا الكون ، فهو لم يفارق الحياة إلا حينما فارق الشعر فراقاً مأساوياً، كانت النهاية فيــه تــأويلاً مكثفاً للحياة والموت والحقيقة برؤية شعرية كشف عن عالم شديد الحساسية. عــالم مهجــوس بسؤال فلسفي ، نظام لروحية إبداعه الخاص، الذي ينجذب دائماً من سطح النص إلى أعماق يتأمل فيها الحياة بأسئلة حارقة وغير نهائية[٥].

كان الشاعر ينازل العتمة بكل أشكالها ، وأشهَرَ سلاح الشعر في وجــه " الظلاميــة" ليقول ذاته في عذاباتها ومعاناتها، ومن ثم أدراك بوعيه الإبــداعي دلالات هــذا " الكــون " الممزق، كونه لا يقع في حدود الواقع المدرك بالحس ، أو الموجود . وبوصــفه ، أيضــا ، معطى ماديا جاهزا ، ومحسوسا ، منبثقا من زعزعة هذا الواقــع ؛ لــذلك أراد التجــاني أن يعوضه بصلاته الحسية الناتجة من ظمأ الذات في نشدانها النموذج المثال .

---

[٥] محمد جميل أحمد : الشاعر السوداني التجاني يوسف بشير .. إلى أحمد عبدالمطلب قراءة استعادية ، مرجع سابق .

لقد كان التجاني شاعرا مهوسا بالرؤية الكشفية نظرا للعلاقة المتسمة بالفصام من الواقع ؛ لذلك شحن ذاته بالانفعالات ، وظل يبحث باستمرار عن معنى الإنسان في إنسانيته ، أو بحسب الشاعر الفرنسي" رونيه شار "**René Char** الكشف عن عالم يظل في حاجة إلى الكشف ، وهنا تقع الصوفية في تماس مع الشعر ، لأنها استبطان منظم لتجربة روحية ، ومحاولة للكشف عن الحقيقة ، والتجاوز عن الوجود الفعلي للأشياء"[٦]

وعي الذات

لقد وفق الشاعر التجاني في تفعيل الحدث المأساوي وجعله أكثر تأثيرا في نفسه ، قبل حس المتلقي ، كما وفق في أن جعل علاقته بالشعر لا تنحصر في كتابة نص شعري ، وإنما تكمن ــ هذه العلاقة ــ في تعزيز الحضور الكشفي للنص الشعري ، وهذا ما يجعل نص الشعر الصوفي أقرب إلى الحضور المأمول منه إلى الغياب المعمول .

وحين يسمو الفن الشعري بالأحاسيس وينتشي بها تتفتق العديد من الهواجس التي تجعل من المتلقي أن يكشف الإشارات غير المألوفة في النص ، بخاصة إذا كان نصا في مستوى ما جاء به التجاني ، حيث تشعر وكأنك تقرأ نصا مقموعا ، مكبوتا ، ندركه فيما لم يقله في خلفيات الغياب، بانزياحه عن الواقع، وميله إلى التصوف بوصفه شفرات للدخول إلى كنه أسرار الذات ، كما في قوله :

قطرات من الصبا والشباب الغض ، منسابة به منساقه

ورهام من روحي الهائم الو لهان أمكنت في الزمان وثاقه

ظل يهفو إلى السما ويشكو لوعة الروح ها هنا واحتراقه

يتحدرن من " معابد " أيا مي حنينا .. أسميته "إشراقه"

يشعر القارئ وهو يقرأ مثل هذا المقطع ، أن الشاعر يكرع من كأس التماهي مع الذات في تأملاتها في الوجود ، وكأنه في صراع مع نفسه وهو يحاول أن يسمعنا تأوهاته من ذاته الولهانة، وذلك في مقاومتها للزمان ، ومعاناته التي تسري في أوصاله ، فحين " يشكو لوعة الروح" يسكن الكون في إيقاعاته الذابحة من شدة الأسى الذي يقطع فلذات من أعماقه،

---

[٦] ينظر محمد مصطفى هدارة ، النزعة الصوفية في الشعر العربي المعاصر، مجلة فصول ،ع ٤ ،١٩٨١.

من المدى المنشود في حنينه الذي أسماه " **إشراقة** " الدالة على الاحتمال المـــأمول ، وهـــي صورة للوجه الآخر، للظمأ، لذلك سيظل يبحث عن فضاء الذات في استشرافها، عله يجـــدها في الضحكات :

قال صديقي : وكل ذي أدب صاحب قربى عندي وذو نســـب

مالي كأن الحيـــاة ساخـــرة مني كأن الأنام يهزأ بـــــــــــي

فما رأيت الوجوه ضاحكـــة إلا تـــأولتـــها على سبـــــــــب

وما رأيت الثـــغور باسمـــة إلا حسبت الحساب للغضـــــــــب

أدس وجهي منهم وأحسبنـــي أني مشف منهم على الهـــــــرب

قلت: وهل في الحياة مضطرب إلا لأهل الريـــاء والكـــــــــــذب ؟

يا صاحبـــي خلهـــم فإنهـــم ليحملون الوجوه من ذهـــــــــب

يحاور الشاعر الصمت المنطّق ــ من نصيب الطالع ــ الذي أسهم في تقسيم الـــذات إلى نصفين : وعي بالخارج ، ووعي بالذات ؛ أي واقع معمول ، وواقع مأمول من خلال سبر الأبعاد المجهولة في ندرة الوجوه الضاحكة في هذا الزمن الموبوء ؛ لذلك أطلق شراراته بحثا عن النزوع الأعمق للإنسان في شوقه العارم ، أو بتعبير آخر البحث عن وجه الحقيقة الغائبة، والتعالي على ما ينتاب الواقع من شقاء ، هذه هي حقيقة عوالم الشعر عند التجاني ، عـــوالم تختزل موقف : **مواجهة وسؤال** ، ومن ثم فإن التعبير عن مكمن الذات في شـــعره مصـــدره الخطف والتيه ، بحثا عن حالة أخرى أكثر طهرا وبراءة، لمصير يتخفى وراء وجه الحقيقة. من هنا، ظل يسعى بذاته الشاعرية ــ في محاولة جهيدة ــ إلى تقمص وجدان العالم الروحي ، وتشوف قواه الباطنية في عالم الشعر الفياض ، امتثالا لمقولة هيدجر : " **إن البديل الخـــلاق للعالم الحقيقي المشوش هو مملكة الشعر والروح** " ،حيث كيمياء التفاعل بين الشعر والروح ، أو بين الحس الوجودي والتوحد بالعلا ، هو الذي أفرز التماهي في المطلق الذي انعكس في البعد الرؤيوي المكتنز بشحنة فلسفية ، وهذا ما تعبر عنه التراكيب الشعرية التي جاءت مفعمة باللمحة الحدسية ":

نهلت من دمي الحوادث واستر وي يراعى مما يدفع دنـــي

تحرقت في الهوى والصبابا تِ وألهبت في المزاهر لحني

...

إنها ثورة الحياة فمن للكو ن يحميه من قذائف رعــن

يفرح الطين في يدي فألهو جاهداً أهدم الحياة وأبنـــي

يصنع الغاب مزهري ويشيد الر مل عرشي ويبعث اللهو أمني

وانفتاح التأويل على هذه الصور يُعد جزءا متمما لخرق المــألوف ، خــرق العــالم المحسوس ، عالم الرتابة، رغبة في الوصول إلى عالم الكشف ، عالم الاحتمال ، إلى عالم ما وراء الحجاب ، حيث البعد الأرحب والأعمق في عالم المدد الذي فضله الشاعر ليغمــر فيــه كيانه بالنور والحبور ، وهو ما يشكل مرجعية أسايسة للتأسي من كل حيف ملــيء بــالوهم والسراب. كما يعد هربا من الواقع ، وتجاوزا لوجوده المتلاشي رغبة في اعتنــاق الوجــود المطلق ، " وإذا كان الهروب من الذات هو نتيجة لحرمانها من موطنها الأبدي ، وإقصائها من سرمديتها ، فإن وعي الذات لذاتها قد أفرز الفلسفة الوجودية التي لا تؤمن بالذات في ملازمتها لواقعها ومصيرها ، ولكنها لا تتنكر أبدا في رفضها له ومناقضته وتجاوزه نحــو اســتيعاب جوهر كينونته التي لا تتراءى إلا لأكثر الناس وعيا بالعالم والإنسان والكون . هذا الثــالوث الأزلي الذي لا تكف الذات عن مساءلته ، مساءلة ذاتها لفهمه ومعرفته ، وحينما تعجز عــن وصله بالفهم والعرفان فهي تسلك مسالك الإبداع والفلسفة والفن عموما [٧].

وعي الكشف

١. قلق الغربة :

وإذا كان التجاني يعي ما يكتب؛ فلأنه يُحس بمعانقة أحزان " ثورة الحيــاة " ،حيــث لعبت دورا مؤثرا في تكوين تجربة الشاعر المتفردة في الأدب العربي بوجــه عــام، والأدب السوداني على وجه الخصوص. وقد أظهرت قسوة الحياة ،هذه ، طاقة كامنة من الإحســاس بالغربة ، هيأتها عوامل كثيرة " أثرت في اتجاهه الشعري ، مثل شعوره بالحرمان بكل أبعاده ومعاناته ، وفقره الذي كان يحسه إحساسا عميقــا ، بالإضــافة إلــى الظــروف السياســية

---

[٧] عبد القادر فيدوح : الرؤيا والتأويل ، دار الوصال ،وهران ، الجزائر ، ١٩٩٤ ص ٥٦ – ٥٧ .

والاقتصادية والفكرية الصعبة التي كانت تحيط بوطنه ، والتي بلا شك هي عوامل مؤثرة على نفسه الحساسة الشاعرة"[٨] . كما حملت هذه العوامل هموم غربتــه النفســية ، قبــل غربتــه الاجتماعية ، بعد أن محض من الحزن ما كفاه ، وما رسمته فسيفساء العتمــة مــن مــآسٍ مسكوبة على صدره ، ومع ذلك ظل يقاومها من دون جدوى ،كما عبر عن ذلك في قصيدة " دنيا الفقير، في قوله :

تعالي معي زهرات الخريف إلى الكوخ أفلت منه الربيــع

ومر به غير مستحب إليه سوى زفرة من دمــوع

وما كان ينفذ منه العبير ولكن شحاً أصاب القنـــوع

تعالي نعطر ثياب الفقير ونمسح مآسي عبر الربــوع

بنفسي من هان حتى توا ضع في نفسه كل معنى رفيع

مشى خاشع الطرف رثّ الثيا بِ كئيبا كثير مرائي الخنــوع

تأكله حسرة في الضمير وتسحقه خيبة في الضلــوع

يبين عليه انكسار الفؤا دِ ومسكنة المستذل الوضيع

وفي نفسه ضمأ للعطور وفي روحه حرقات وجــوع

ينام على وله بالثراء ويصحو على نسمات الهزيع

فيرفع كفيه نحو السماء ويضرع. واها له من ضريـــــــع

وماذا يقول : إلهي الكفاف ويردفهــا بالبصيــر السميـــــــع

ويمسح في وجهه راحتيــ ــه ويغضي تقى أو رضى أو خشوع

---

[٨] مبارك حسن الخليفة : النزعة الصوفية في شعر التيجاني يوسف بشير ولطفي أمان ، مجلة أداب [كلية الآداب ، جامعة الخرطوم] ع ٢٠ ، ديسمبر ٢٠٠٢ ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

لقد كان الأسى يتمدد في أوصال الشاعر حتى أصبح ملازما له في حياتـــه ، حيـــث تتداخل الصور والمعاني والأحاسيس لتجسيم غربته وحرمانه من كافة متطلبات الحياة ،ولعل "سبب شعور التجاني بالغربة في وطنه ، إحساسه العميق بالفقر ، وهو يرى الأثرياء حولـــه ينعمون بالعيش الرغد ، وإحساسه بأنه أديب ضائع في وطنه ، وإحساسه بالغبن حين دبرت له مؤامرة فصل على إثرها من المعهد ، وإحساسه بضياع خيرات وطنه التي ينعم بها الأجنبي ، بينما هو يعاني الفاقة والعوز[٩]"، حتى أصبحت هذه الغربة تمثل طعم التيه والمطلق في حياته ، فكونت لديه استبطانا لتجربة روحية على إثر تقلبات المحيط الكوني . هـــذه التقلبـــات التـــي لصقت به واستقرت في شعوره ، وعجنت حياته إلى سراب ، فتملكت الكآبة وجوده النفسي ، واقترنت بغربته ، وأصبح يتعفّر في اليأس ، وتطغى على نفسه الهموم والكروب ، وتضاعف الشجن لديه ، وتعمقت لديه فكرة الرغبة في تحول صورة اليأس إلى معنى من خلال ســـفره، عبر رحلة الكشف في حضرة الرؤيا الصوفية ، وكأنه في ذلك يتطهر إلى الخلاص من وطأة مأساة اليأس التي لازمته.

وعلى الرغم من ذلك فإن الشاعر لم يستسلم لهذه السوداوية الطاغية في ضيقه بالواقع من دون الرغبة في التخلص من هذه الصورة ، بل ظل في مسعى مســـتمر يقـــاوم ويكابـــد المشاق، رغبة في إيجاد منفذ للخروج من قسوة شدته، كل ذلك لم يشفع له، فركـــب هولـــه، ومأساته، بحثا عن عالم آخر، فاستبدل النزوع الصوفي بصورة الهموم والكروب ، وعـــوض المعاناة المادية بالمكابدة الروحية ، وانتقل من دائرة اليأس ، في سبيل الوصول إلى الاطمئنان الروحي في حضرة التوحد بذات الحق :

الوجُودُ الحقُّ ما أَوْس ـــعَ في النَّفْسِ مَدَاهْ

والسُّكُونُ المَحْضُ ما أَوْ ثَقَ بالرُّوحِ عُـــراهْ

وقوله :

ثُمَّ ماذا جَدَّ مِنْ بَعْـدِ خُلُوصِي وصَفائي

أظلمتْ رُوحِيَ ما عُدْ تُ أَرَى ما أَنا راءِ

---

[٩] المرجع السابق ، ص ٨٢

أَيَّهذا العِثْيَرُ الغائِمُ في صَحْوِ سَمائِـــي
للمناياَ السُّودِ آمـــــا لي وللموتِ رَجائي

أليس من الحيف أن يعيش المرء في هذا الكون مغمورا ، مبعدا ، ومنفصلا عن عالم يفترض أن تسمه المحبة ؟ ثم كيف يلازم هذا المرء شدة السأم في غياب فيْء الحنان وغمرة الحب ؟ ، ولماذا يعيش الانكسار ، ويعصره الخوف والقلق؟.. وأسئلة كثيرة تراود كل مبـــدع مرهف الحس مثل التجاني يوسف بشيرالذي لم يجد سبيلا إلى الخلاص من هذا من الحيـــف والجور بالسعي إلى الحقيقة الأكثر التصاقا بالمطلق ، ومن ثم إلى حضرة الصفاء في مجاهدته الروحية ، وكأنه يحاول أن يعوض غربة وجوده التي أضفى عليها طابع الشـــعور المتعـــاظم بالمثالية ، حيث يعيش الإنسان غربة مستمرة، على اعتبار أن الاغتراب معطى ملازم لوجود الإنسان حيثما كان، كما هو الشأن بالنسبة إلى الشاعر التجاني يوسف بشير حين يقول :

يا غريبا عن ربعه قم تلمس بين قيثارة الهوى آثاره

وتعقب معاهد الروح الطيب واقطف من الهوى أزهاره

...

وهو يشكو من الزمان تجنّيـــ ـــه ويشكو من الحبيب ازوراره

...

ويح هذا الغريب كم ذاب تحنا نا وكم صاغ من دموع دياره !.

ويحه أوشك الزمان وأشفى أن يعرى عن نضرة آذاره !!..

والمقطع يشير إلى إحساس التجاني يوسف بشير بعدوانية الكون بمـــا فيـــه ، الرفيـــق ، والطبيعة في انكسار الحياة . فمرة ، عن " ربعه " ،وأخرى عن " زمانه " ، فلم يجد بدا مـــن إطلاق كلمة الرأفة به والتوجع من مصيره في " ويح هذا الغريب " ، " ويحه " مما آل إليه في هذا الزمان ؛ لذلك ركب السعي إلى عالم الروح ، رغبة في الدخول إلى عالم المركز الثابت ، الأبدي ، الكامل ، محرك هذا الكون .

٢. الصوفية المَرْآوية :

إن ما يخبر عن مجهول مَرآة الشاعر، **وأن ظاهره يدل على باطنه** ، في أعمق معاني عباراته الصوفية ، هو الكشف عن عالمه الداخلي بفعل دوافع عالمه الظاهري ، وكأن الشاعر في صراع مع وعي الذات ووعي الكشف ؛ أي في " مواجهة الواقع وتخطيه ، من حيث كونه ضربا من السخف والتدني ، وأن بإمكان الذات التسامي على حِطته ، ورخصه، والقدرة على الصراخ بـ " لا " بما فيها من إمكانات مذهلة يستوعبها اللاوعي الباطني لتكون ملاذها وخلاصها المنتظر ، يقينا منها أن المتعالي هو في جوهره انفتاح للفكر واتساع لآفاقه ، وتجاوز لكل الحدود "[١٠].

والشاعر عندما يوظف لغته بهذا الشكل ، إنما يستمد منابعها من تجربته التي مر بها في حياته العادية المعقدة ، والتي تعكس تجربة الواقع المتسم بالغموض ، وقد أثبتت الدراسات أن الشعر على مر العصور تمجيد للعالم أنّى كان ، وبحسب رأي جون كوهن أن "غموض الأشياء الموصوفة ليس طريقة للكتابة ، ولكنه وفاء لصدق التمثيل للعالم الذي يلتقطه الوعي عندما يتذكر أو يحلم"[١١] ، على الرغم من أن تمثل لغة الوعي بالخارج تستمد فاعليتها من ضوابط العرف الاجتماعي ، وقوانين اللغة البلاغية ، إلا أن المتصوف ، أو ذي النزعة الصوفية ، يضيف إلى هذه اللغة إشارات ومدلولات خاصة به لتدخل في ظاهرة الحدس الخارق " فكما تنفصل روحه عن جسده، فإن لفظه ينفصل عن معناه المتعارف عليه لتحل فيه إشارات ودلالات لم نألفها من قبل، وهكذا ينتقل الخطاب الصوفي باللغة من العبارة إلى الإشارة، ولهذا قال أبو علي الروذباري: " **علمنا هذا إشارة فإذا صار عبارة خفي.**[١٢]

ولعل تجربة التجاني يوسف بشير لا تبتعد عن هذا الطرح من حيث الارتباط بالوجد بوصفه تجربة، كابدها الشاعر عبر لغة الإشارة في إيحاءاتها الموظفة في صور استعارية ، تقوم على " **شطح الكلمة** " من خلال اللفظ الذي تسكنه روح هذه الكلمة ومدلولها الجديد الذي يبتعد عن المدلول المتداول ، وهكذا يكون الخطاب الشطحي خطابا صوفيا مخصوصا "[١٣]،

---

[١٠] ينظر عبد الغفار مكاوي : مدرسة الحكمة ، دار الكتاب العربي ، ٧٠ . وانظر ، عبد القادر فيدوح ، الرؤيا والتأويل ، ص ٦٠ .

[١١] جون كوهن : اللغة العليا ، ترجمة : أحمد درويش، المجلس الأعلى للثقافة ، ط ٢ ، ٢٠٠٠، ص ٢٧٢ .

[١٢] ينظر ، علي القاسمي : الشعر والتصوف .www.ebabil.net/ebabil/modules وينظر أيضا ، محمد بن إبراهيم النفري، شرح الحكم (بيروت : المكتبة العلمية، ب ت) ج١ ص ٢٩.

[١٣] ينظر علي القاسمي : الشعر والتصوف ، مرجع سابق .

تتضافر فيه مستويات عدة ، يكون مركزها الإضمار والتنكر للظهور ، وليس في مقــدور أي دارس أن يتمثل ذلك إلا بقدر تشبعه باللغة الصوفية في مداليلها الإشارية الإشراقية.

وإذا حاولنا أن نستقرئ نص " **الصوفي المعذب** " لوجدنا الشاعر يتخطــى الصــورة الاستعارية في مضامينها الدلالية إلى ابتكار صورة مغايرة ، نجــوز لأنفســنا أن نســميها "**صورة شطحية** " ؛ إذ نجد الشاعر يشطح بخياله ، كما ، في هذا المقطع بقوله :

في تَجَلِّيَّاتِكَ الكُبْـــ ـــرَى وفي مَظْهَرِ ذَاتِكْ
والجَلالِ الزَّاخِرِ الفَيَّــاضِ مِنْ بَعْضِ صِفَاتـــــكْ
والحَنانِ المُشْرِقِ الوَضَّـــ ـــاحِ مِنْ فَيْضِ حَياتــكْ
والكمالِ الأَعظَمِ الأَعْــلَى وأَسمَى سُبُحاتِـــــــكْ
قدْ تَعَــبَّدْتُكَ زُلْفَى ذائداً عنْ حُرُماتِـــــكْ
فَنِيَتْ نفسي وأَفْرَغْــتُ بها في صَلَواتِـــــكْ

تبدو صفة تجلي ذات الحق في ذات الخلق واضحة المعالم ، عبر صورة حلول النفس في تجلياتها الكونية في اتصالها بالعلوي ، وهذا ما تبرهن عليه قصيدة " **الصوفي المعــذب** " برمتها ، فيما تحمله من رؤيا كونية ، اتخذت من الطبيعة عناقها لمجاهدة الشــاعر بإظهــار إشاراته الروحية ، في صورة الاتحاد :

والجلال الزاخر الفياض من بعض صفاتـــــك

إن الظاهرة المسيطرة في " الصوفي المعذب " تكمن في مقام إثبات ذات الحــق فــي ذات الخلق عبر ثنائية محورية ، يكون مركزها خلق الكون في إيقاعه التضــميني وَمُعَامَلَــة صورة الكمال والتمام معاملة الوسيط لظهور الوجود بين نور الحق ونور الخلق ، ولتضــمنه معناه . ومن هنا يرى ابن سبعين أن الكمال بالأصالة هو الكل بالمطابقة ، وهو عين الكمــال وغاية الجلال بالتضمن ، على عكس ما يراه في حق كمال الإنسان الذي هو النقص بالأصالة ، والجزء بالمطابقة ، ، وفي ذلك تأكيد من ابن سبعين على الوحــدة المطلقــة فــي الكمــال الماهوي [الماهية] ؛ أي كمال الحق في مطابقته ــ أيضا ــ للوجود كله ، مما يؤدي إلــى أن يكون من حيث المعنى الكمال وسر الوجود ، وغاية الجلال "[١٤] . وهكذا تــؤدي ذات الخلــق

---

[١٤] ينظر ، رسائل ابن سبعين ، تحقيق : عبد الرحمن بدوي ص ١٤٤ . عن كتابنا ، نظرية التأويل في الفسفة العربية الإسلامية ، ص ٩٠ – ٩١ .

دورها في انعكاس الذات العلية ، والشاعر أكثر مقدرة على التراوح بين الذاتين في النفاذ إلى جوهر انعكاس الذات العلية في خلق الأشياء { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ } سورة الروم من الآيــة ٢٧ . ولعل هذا هو مكمن السر في تجليات الصــوفي الداعيــة إلــى الاشتياق إلى صورة الحق . وهذا ما سيطرت عليه رقة الإحساس للدلالات داخــل العبــارة الصوفية في شعر التجاني من خلال : " **تجلياتك / مظهر ذاتك / الجلال / الحنان / الكمــال / نفسي / صلواتك** ، إلى غير ذلك من مثل هذه صور المعبرة عن الشطح للمشاعر القلبية فــي يقينية الإحساس بالمشاهدة . وقد يبدو للقارئ أن مثل هذه الكلمات ذات معانٍ متعارف عليها ، كونها في نظره تنتمي إلى واقع الاصطلاحات اللغوية المألوفة ، غير أنها في اللغة الصــوفية تعنى بالإطلاق ،أو ما يمكن أن نطلق عليه بلغة " **بُعْدُ القربِ** " ؛ أي انفصالها عن المعمول ، واتصالها بالمأمول في معرفة الأسرار ، وذلك من خلال ارتقاء مداليل هذه الكلمات في مدارج الصعود إلى الأعلى ، رغبة في الدخول إلى عالم الحقيقة ، وهذا ما حاول تأكيده التجاني حين تسامى عن كل شائنة في العرف الاجتماعي بخلوصه في الفناء بذات الحق والتي أطلق عليها المتصوفة بالحلول، كما في قول الشاعر :

ثم ماذا جدّ من بعد خلوصي وصفائــي

أظلمت روحي .. ما عد ت أرى ما أنــا راء

أيهذا العثير الغا ئم في صحو سمائي

للمنايا السود آما لي وللموت رجائــي

آه يا موت جنوني آه يا يوم قضائـــــي

قف تزود أيها الجبــ ــار من زادي ومائي

واقترب إن فؤا دي مثقل بالبرحــاء

إن لغة الشاعر في نزعتها الصوفية تنبع من سمو معناها في ذات قيم الوجدان، المفعم بالمعالم الروحية ، وتقوم فلسفته على الحدوس في علاقته بـــ " **الخلوص / الصفاء / ما عدت أرى ما أنا راءٍ / صحو سمائي/ للموت رجائي/ تزود ، من زادي ومائي / اقترب إن فؤادي.**

في مثل هذه الصور يظهر الشاعر قلق البال من كيد الظلمة وضيومها ، ومن الحَسَرات التي انتابت روحه وعكرت خلوص صفائه، حتى أصبح مشوبا بالهموم ، ولعل في تركيزه على سر الصفاء ، المقابل للكدر ، ما ينم عن الغاية المنشودة لدعوة الحق ، والتوجه إلى مكمن الحضرة الواحدية ، والخُلوص المحضُ ، والبعد عن المذمومات، وإماتة الشهوات. فالصفاء مرآة القلب الطاهرة التى عليها الحقائق بعد التخلص من آفات العادة والطبع الرديء ، وعدم الركون لطلبات النفس من الفتوحات، والكشوفات، والتجليات ، وإنما طهارة النفس بلا ملاحظة واهتمام، فانشغال العبد بصفائه واهتمامه بتنقية قلبه إنما هو جفاء؛ أى بعد عن الصفاء، لأنه فى هذه الحالة يكون مريدا للأحوال والمقامات، راغبا فى الكمالات، وهذا انشغال برؤية العقل عن الطاعات والموجبات، فملاحظة ما صفا بالصفاء جفاء. وليس في وسع الشاعر المتصوف في مثل هذه الحال إلا أن يصل إلى درجة عليا من الصفاء وهو صفاء الصفاء، أى يشاهد الحق بالحق ، ولا يكون هناك حاجز حسي، أو مادي، أو علة وسبب فى الاتصال بالله، لأنه هنا يكون قد وصل بعد مفارقة الطبع والعادة والفعل والعمل[١٥] ، وليس لذلك من مبعث إلا طلب الوصول إلى الخلود " **للموت رجائي** " حيث تتحول الرؤيا بالمكاشفة بعد أن " **أظلمت روحه** " ، ولم يعد يرى ما كان يرى ؛ أي إنه لم يكن يرى بالعين المجردة ما كان يفترض أن يراه بعين القلب ، وبهذه الرؤيا ترتبط المشاهدة بالرغبة في الفناء في نور القدس ، وهذا ما يؤكده المعنى :

أيهذا العثير الغا ئم في صحو سمائي

وهو يتجاوز النظر العقلي بالعين المجردة التي شوهت مقاصده في الوجود ، في مناظر الحياة المستترة عن ينبوع المحجوب ، هذا المحجوب الذي لا يتم الوصول إليه إلا بالتزود من " زاد الماء " :

قف تزود أيها الجبـ ـار من زادي ومائي

وفي قوله في قصيدة " الله ":

ظمأ في النفوس ..لأرى إلا في ينابيعه إلى الأنبياء

إنه النور ، خافقا في جبين الفـ ـجر والليل دافقا في الماء

---

[١٥] ينظر ، موقع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وزارة الأوقاف ، مصر ، الرابط : www.islamic -council.com/mafaheemux

ولعل اقترانه بالماء في صفائه ما يعطي صورة فرضية التقابل للانصـــهار فـــي ذات القدس ، ولن يتم ذلك في نظره إلا ، بفعل وحدة الوجود التي تتحقق فاعليتها في الحلولية بما يحصل من توحد في قلب الشاعر، المتعطش بالارتواء من الصفاء والنقاء الروحي ، بعد أن :

غاب في نفسي أشرا قك والفجر الجميل

واستحال الماء فاستحـــ ـــجر في كل مسيل

وقد يكون طلب التزود من الماء ـــ في هذه الصورة المحض، وما تحبل من دلالات وحمولات ، في نظر الشاعر ـــ إحالة إلى التعطش ، بطلب المحبوب من معشوقه بالتفـــاني في عشقه بفعل شراب السر من التوحد بحقائق ذات الحق الموجودة في كل شيء . وذلك بعد أن اتخذ من الماء زادا بما يستعين به على التطهر ، والتقرب إلى الله صافيا منزها .

٣. **التجلي بالعبارة :**

إن الإفصاح بالتجلي ، منبعه تجلي الذات في السعي إلى طريق معرفة ظهور الشيء ـــ بفعل التحول الروحي من حال البطون ـــ إلى حال الجهر والظهور. وقد اتخـــذ مفهـــوم التجلي عين القلب ، أو الحدس ، سبيلا لإدراك الحقائق الباطنية ، ضمن علاقة ارتباط الحـــق بالخلق ، امتثالا للحديث الشريف : "**كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني** " لما يتضمنه هذا الحديث من صفات الكمال لذات الحق ، وبإفاضة الإيجاد والظهـــورفي ذات الخلق.

والعبارة التي نقصدها عند التجاني هي التعبيرعن ظهورات الكون بغرض الوصـــول إلى خفايا البطون ، بتنسيق حميمي بين الظهور والكمون ، فيتشكل بذلك إيقاع موسيقي داخلي مرتبط بالعلوي في لحن منسجم مع الذات من دون شائبة ، وفي هذا مظهر لآيـــات الآفـــاق المعبر عنها من آيات النفوس الطاهرة ، الصادقة . أضف إلى ذلك أن حقيقة العبارة الصوفية تكمن في انعكاس الحقيقة بالمعنى المقصود ، وإظهار معاناة الوجدان ووجد المعنـــى ؛ " أي تطابق ظاهر وباطن الوجدان في العبارة ، وهو تطابق يشحن العبارة الصوفية بالمعنى بفعل احتوائها وحدة البيان والبرهان والعرفان ، ويعطي للمعنى أعماقه السحيقة بفعـــل اســـتبطانه عوالم الملك والملكوت والجبروت "[١٦]

---

[١٦] ينظر ، ميثم الجنابي : تضاريس الإبداع في التجربة الصوفية ، الرابط :www.islamic-sufism.com

والشاعر المتصوف يزداد اهتماما بالعبارة في تناسق تام بين الظهور والكمون، وذلك بعد أن يروض قلبه على فهم الحقيقة بفضل صيرورة الكون المتناسقة ، كما أن العبارة الصوفية لا تطرق باب الاختلاف ، وإنما يُعد باب التماثل مسلكا لها في انسجام الكون وتناسق أجرامه .

وقريبا من هذا الفهم، تندرج تجربة الشاعر التجاني يوسف بشير في معظم قصائد ديوان " إشراقة " ، بخاصة في نصوص : **الله** ، **والصوفي المعذب** ، **ونفسي** ، وفي ثنايا كثير من القصائد الأخرى التي برهن من خلالها على توهجه الروحي ، وقد امتح منها فيض عباراته الكشفية عبر المكابدة والمجاهدة ، رغبة في السعي إلى طريق سر المعرفة بالرؤيا، بعد التجرد من الشوائب وكل ما يدنس صفاء الروح من الرذائل. لذلك فضل الشاعر التجاني الخوض في تجربة رؤيا العبارة بالفعل لا بالقول ؛ أي أن تمارَس تجربة الفعل بما تكون، لا أن تبقى رهن دلالة المقول ، ومن هذا المنظور استطاعت شعرية التجاني أن تتجاوز فضاء إشارة القول، كما تجاوزت وظيفة اللغة عنده في كيانها الاصطلاحي المألوف إلى دلالات جديدة، تتلاءم مع معجم أقطاب التصوف . وقد أتقن سبيله في ذلك وهو بعد في مقتبل العمر، وكأن القدر أراد له أن يكون كذلك ، في هذا المقام ، بعد أن عجله إلى أصل الوجود ، حيث المقام الأعظم .

وإذا كنا قد فضلنا إدراج العبارة الصوفية إلى شعر التجاني ، فلأنها تعبر عن مسعى مقام التجليات في شعره، كما تعبر عن كنوز ، ومواهب، وقدرات كبيرة، وقوى كشفية خارقة ، وفي هذا ما جعله يستجيب للغة شعرية مشحونة بتصريحات تخفي من ورائها لغة المتصوفة الكبار، وذلك من خلال هذه العبارة الصوفية المتضمنة رؤية الاتساق التي تجمع بين الوقائع المتسترة عن الحقائق المخبوءة .

إن العبارة الصوفية في " الصوفي المعذب " رؤيا بالموهبة المتوقدة ، بعد الامتلاء من نور المعرفة بما في سويداء القلوب ، ومجاهدة النفس بالاستقامة . وبقراءة أولية يكتشف المتلقي الحرارة الوجدانية التي حشدت طاقته بالانقياد للحق :

أَنا وَحْدي كُنْتُ أَسْتَجْلي مِنَ العالَمِ هَمْسَهْ

أَسْمَعُ الخَطرَةَ في الذَّرِّ وأَسْتَبْطِنُ حِسَّهْ

واضْطِرابَ النُّورِ في خَفْقَتِهِ أَسمعُ جَرْسَهْ

وأَرى عِيدَ فَتىَ الـــــــورْ دِ وأَسْتَقْبِلُ عُرْسَهْ

وانْفِعالَ الكَرْمِ في فَقْــعَتِهِ أَشْهَدُ غَرْسَـــــهْ

رَبِّ سُبْحانَكَ إنَّ الــكونَ لا يَقْدِرُ نَفْسَـــــهْ

صُغْتَ مِنْ نارِكَ جنيــهِ ومِنْ نُورِكَ إِنْسَــهْ

رَبِّ في الإشراقةِ الأُو لَى على طِينةِ آدَمْ

أُمَمٌ تَزْخَرُ في الغَيْــ ــبِ وفي الطِّينةِ عالَمْ

بهذه الصور المكثفة ، في دلالة معانيها الإشراقية ، يستلهم الشاعر تجربته الصوفية التي ترى في وحدته استكشاف الباطن الخفي ، فينبلج معنى التقابل بين [**الاستجلاء / الهمس**] وبين توالي المرات ؛ أي في الخطرات وفاعلية الإدراك [**الخطرة / الحس**] كل ذلك من أجل إظهار جمالية الرؤيا التي تنبثق منها الإشارات فيما تعطيه اللغة الصوفية ــ في عباراتها الدالة ــ سر اكتشاف الوجود والإنسان الذي لا يعرفه إلا أهل الكشف لدى أهل الإشراق والعرفانيين. ولن يكون ذلك كذلك ــ بحسب التجاني ــ إلا بتفاعل الذات في حلولها مع الطبيعة : [**اضطراب النور / أسمع جرسه**] ، [**استقبال فتى الورد**] في غضه ونضارته ، [**وتفتح الكرْم الذي يشهد غرسه**] ، وغيرها من الصور التي أوحت إليه بامتزاج عناصر الطبيعة في ذات الشاعر ، وكان ذلك بصورة جلية ، جلاء نور اليقين ، في شكل اتحاد مع مكونات الكون في نشأته من ذات الحق ؛ الأمر الذي شكل لدى الشاعر شوقا واحتراقا ، وزرع فيه رغبته في طلب اليقين ، والحاجة إلى الكشف ، بتداعيات الحيرة والدهشة ، الإخلاص والرضا ، في سكون القلب إلى فعل الحق بالقصد ، والوفاء لمخلوقاته بالفعل لا بالقول ، وبالاختيار لا بالضرورة ، من منظور أن مسلك قصيدة " الصوفي المعذب " ــ على وجه التحديد ــ نزوح دائم في العبارة الدالة على جوهر الكون بفعل المشاعر القلبية :

ربِّ سبحانك إن الكون لا يقدر نفسه

وكأن الشاعر يتقصد في تجليه للرؤيا بالإحالة إلى مصدر مبعثها ، وتدفقها ، من مظاهر الجمال المطلق وما تعكسه قيمته الجوهرية من تطابق الجمال في الوجود المتعيّن . والشاعر التجاني بين هذا وذاك موزع ، في عشقه ، بين المرئي واللامرئي ، بين الظاهر والباطن ، مستغرق في سرّ صنيع الحقّ صورةَ الخلق ، فما كان منه ــ بعد أن مَحِضَ من

رحيق العرفان ــ إلا أن اكتنه العبارة بما تتضمنه من رؤى تعكس الظل ومصدره ، وذلك ما خص به التجاني حيرته من أمر صنيع إرادة الحق :

صُغْتَ مِنْ نارِكَ جِنِّيــهِ ومِنْ نُورِكَ إِنْسَهْ

وفي ذلك تأجج حرقة الشاعر ، والتهاب قلبه المولع بتوهج حيرته في أمَارة خلقه . ولكــن ، سرعان ما فك حيرة قلقه السابح في معنى المجهول " **همسه** " في مضمرات صــور الخلــق حين أضفى على حيرته إجابة قنوعة راضية ، فيما منح الله هذا الكون ، وفي سكون القلــب إلى الإيمان بأحكام " الصورة الأولى التي قبض عليها الإنسان لمعرفة ذات الجلال في ذاته " فابتغى وجهه صفات الكمال في الإشراقة الأولى التي حركت فيه انبجاس فيض العبارة فــي قوله :

رَبِّ في الإشراقة الأُو لَى على طِينــــةِ آدَمْ
أُمَمٌ تَزْخَرُ في الغَيْــ ــبِ وفي الطِّينةِ عالَمْ
ونُفوسٌ تَزْحَمُ الماءَ وأَرواحٌ تَحــــــاوَمْ
سَبَّحَ الخَلْقُ وسَبَّحْــتُ وآمنْتُ وآمــــــنْ
وتَسَلَّلْتُ مِنَ الغَيْــ ــبِ وآذَنْــــتُ وآذَنْ
ومشىَ الدَّهرُ دِراكاً رَبِذَ الخَطْوِ إِلى مــــنْ . .؟

ولقد جبل المتصوفة على الرؤية الدقيقة لمظاهر الكون بالاستبطان . وتؤدي النظــرة القلبية دورها في إيصال رؤية الوجود لإضاءة العبارة ، ولعل النظر بعين القلب مــن أكثــر الحواس نشاطا لدى المتصوفة في نقل المنزع الإشراقي بين المدرك واللامدرك ، فالومضات اللونية البصرية ، والرؤية القلبية الدقيقة للأشياء ، المرئية واللامرئية ، هي من صميم التجربة الصوفية لإضهار الحقائق العليا .

إن اكتشاف الذات المشبعة بالخصوصية الروحية يعطي توهجا قابلا للتواصل بالعليائي ، النوراني . وبذلك تصبح صورة :

نَضِرَتْ في قُرْبِهِ نَفْــ ــسي وزَايَلْتُ غُضونيُ

صورة ذات بعد إضماري بعمق امتدادها، واستنباط مياسم الحسن في قربه من نور الحــق ، وقد أعطت هذه الصورة بعدا روحيا متناميا في مداراته ، وفضاءاته الإشراقية ، وكون هــذه

الصورة كذلك ، فهي تُظهر مقام التوحيد بالعالم العلوي ، حيث الوجـــود المطلـــق ، والخيـــر الأسمى . والحال هذه ، أن الشاعر التجاني مولع بابتهاج نفسه في نضارتها بعـــد توحـــده ، وذوبانه في الذات الإلهية ، وأن خافية الصورة التي تحكمه هي الجمال الأقدس بتجنبه أبعـــاد الانكسار ، والإعياء ، وهي تمضّه مضًّا من جهد العالم السفلي " الحادث الزماني " الذي يشق عليه شغف الحب الإلهي، في صورة الالتحام والوحدة ، كنور يبزغ في فجر يقينـــه بعـــد أن ترجرجت ، وتصدعت ، غائلة الشك في ذاته ، كما في قوله :

فَمَشَتْ غائلَةُ (الشَّـــ ـــكِّ) إلى فجرِ يقيني
قَضَتِ اللَّذْةُ فاسْتَرْجَـــ ـــعَها لَمْحُ ظُنونـــــيُ
واسْتَردَّ النِّعْمَةَ الكُبْـــرَى مِنَ الدَّهرِ حَنينـــــي
مَنْ تَرَى اسْتأثَرَ باللَّذْ ـــةِ واسْتَبْقى جُنونـــي ؟

أَ لَمْ تكن هذه الصورة بمثابة تعبير عن الحد الفاصل بين المعلوم والمجهول ؟ أم أنها تعبر عن انفصال المشتبك بين المرئي والخفي ، والمحسوس والمعقول ؟. وقديما أطلق ابـــن عربي على مثل هذه الصورة : " البرزخ "، بوصفها المنطقة الوسطى بـــين عـــين البصـــيرة وعين الحقيقة ، كل ذلك من أجل الاتحاد بكشف أسرار الوجود ، بالعبارة ، وفـــي ضـــوء انسجام تام بين " **الإنسان الأصغر** " و " **الإنسان الأكبر** ".

ولقد عبر الشاعر بذوقه عن حالة الوجد من خلال تجربته الروحية ، وقلبه الظامئ ، ونفسه المتعطشة في قصيدة : " نفسي !. "بقوله :

هي نفسي إشراقة من سماء اللـــ ـــه تحبو مع القرون وتبطي
موجة كالسماء تقلع من شط وترسي من الوجد بشـــــط
خلصت للحياة من كل قيـــــد ومشت للزمان في غير شرط
....
وهبت للجمال أقدس عقـــــد من أهازيجها وأكرم قُـــُرط
وأفاضت على الصبا آيـــــا ت من النور في غلائل خـــط
صابها في الضحى مرش من الطل على آنف الحدائق مبطـــــي
نضرتها يد الربيع وجـــالت في حواشيها برفق وضغـــط
هي نفسي من الندى قطرات لم تنلها يد الزمان بخلـــــــط
هي في صفحة الشباب قوى تز خر بالحب أو تموج بسخـــط

هي قسطي من السماء فما أضـــ ـــيع في العلم الترابي قسطي
ويح نفسي تنام من دونها الأنـــ ـــفس شوطا وما تهم بشوط

وفي عمق هذه الصور الدالة تبزغ نفسه الطاهرة في إشارات لغوية متدفقة بتقـــابلات متجانسة ، وفي تجاذب عمقي ، عبرت عنه ما ورائيات اللغة المجازية في تأويلاتها الصوفية ، كما ورد في هذا النص المعبر عن انزياح النفس لدى الشاعر وهو يدرأ بنفسه من كل شائبة إلى كل ذائقة في : **إشراقة ، من سماء الله / تحبو ، تبطي / تقلع ، ترسي / خلصت ، مشت / قيد ، شرط / أقدس عقد ، أكرم قُرط / نفسي ، قطرات / تزخر ، تموج** . كلها صور تشع بظلالها على أجواء ذات الشاعر المتناغمة مع مركز الكون .

والشاعر بوصفه رائيا لموجودات الوجود ليس له إلا أن يتماثل مـــع هـــذه العلائـــق الكونية في حمولاتها المتناسقة ، وهو ما عبرت عنه الصورة الجوانية الملتحمة فـــي نســـمة الهواء، وأنداء بخار الماء المتكاثف في طبقات الجو ، ليصبح فيما بعد قطرات ربانيـــة تنيـــر سبيل الشاعر :

هي نفسي إشراقة من سماء اللـــ ـــه تحبو مع القرون وتبطي

أو كما جاء في قصيدة : قطرات :

قطرات من الندى رقراقة يصفق البشر دونها والطلاقة
ضمنتها من بهجة الورد أفوا ف ومن زهرة القرنفل باقـــة
نثرت عقدها أصابع من نو ر ترسلن خفة وأناقـــــــــة

لتدل ، هذه الصور ، على انصهار النفس في تطابقها المتزايد مع مدلول المطلق . والنفس إذ تبوح بذلك فلأنها تبوح باتساع أفق الإمكان الرحيب " **هي نفسي إشراقة مـــن ســـماء الله** " ، ولن يكون لهذا الاتساع مداه إلا حين تتموج هذه النفس في أجواء الكون ، وحين تقلع وتُرسي ، ثم ترسي وتقلع للمكاشفة في صورة تحول دائم ، ما يجعل هذا الموقف في هـــذه الصـــور يذكرنا بنهج البردة في الشوقيات :

يا نفس دنياك تخفي كل مبكية وإن بدا لك منها حسن مبتسم
فضى بتقواك فاها كلما ضحكت كما يفيض أذى الرقشاء بالثرم

مخطوبة ــ منذ كان الناس ــ خاطبة من أول الدهر لم ترمل،ولم تئم
يفنى الزمان ، ويبقى من إساءتها جرح بآدم يبكي منه في الأدم
...
يا ويلتاه لنفسي رعاها ودها مسودة الصحف في مبيضة اللمم
...
والنفس من خيرها في خير عافية والنفس من شرها في مرتع وخم

وعلى الرغم من أن هذا المقطع يعبر عن صراع النفس مع ذاتها، إلا أن ملامح الحس الصوفي، من خلال السعي إلى السكينة ،يظهر ملامح التقارب مع الشاعر التجاني في سكينة النفس المفعمة بالتأنيب المفضي إلى التبصر في الوجود.

٤. الشطح باللغة :

يمتح المتصوف لغته من محض رؤية الكون ليكوِّن عالما خاصا به . واللغة الصوفية في نسقها الوظيفي نابعة من المجاهدات الروحية ، ومن خلال تمثل التجربة بالممارسة العرفانية، وهي بذلك غالبا ما تميل إلى لغة الشطح ، بخاصة في حالات غيبوبة المتصوف، عندما يخترق في سلوكه حدود العقل والمنطق في المواضعة اللغوية .

ولغة التجاني يوسف بشير لا تختلف عن لغة المعراج الصوفي ، كونها تساعد المتذوق في الكشف بالمشاهدة عن الحقيقة العلوية . وكشفُ الأسرارعند الصوفية، هو "**الاطّلاع على ما وراء الحجاب من المعاني العليّة والأُمور الخفيّة، وجودًا وشهودًا**"، أضف إلى ذلك أن لغة الشطح تنير للمتصوف الطريق في سبيل الوصول إلى تجليات المطلق ؛ لأن معراج اللامتناهي لا يعبَّر عنه إلا بلغة اللامتناهي ، وهذا ما يطلق عليه في لغة المتصوفة بـ " **علم الأسرار** " ، وهو العلم الذي فوق طور العقل . فكلمة " الجوع " مثلا تخترق في لغة المتصوفة حدود معناها الاصطلاحي، وفي عرف اللغة المتواضع عليها، إلى معنى التقرب إلى الله ، والتعطش إلى اللقاء المأمول به ، أو التملك بالرغبة في التزود من الرَّواء، وفيض منبعه العذب .وشتان ما بين لغة المواضعة ولغة المجاهدة الكشفية ، والشاعر يمر بمراحل في ممارسته تمثل هذه اللغة التي تبدأ من مرحلة الذوق ، وبعدها ينتقل إلى مرحلة الأحوال ، ثم مرحلة المعراج وهي رحلة داخل النفس ، وينتهي إلى مرحلة المخاطبة في التبحر بلغة الشطح، وذلك بإخضاع القلب ، مصدر كشف الأسرار ، إلى الاسترسال في لغة رامزة لا

تعبر إلا عن أحواله . وبهذا تتحول لغة المتصوفة إلى معدن جديد، يستقي منه أصحابه ترميزاتهم الخاصة بهم عبر مفاوز وفلوات جدلية، رغبة في "**الكشف عن العلاقة الوجودية (الانطولوجية) بين الله والإنسان، والإنسان الكامل**" .

ولغة التجاني تفضي إلى تجربته الذوقية في طلب اليقين ــ من هذا القبيل ــ بعد أن قاسى من الحياة ما جعله يثور ، ويتمرد على التجربة الوجودية ، حيث لم ينعم براحة البال ، ولا طيب العيش . كما استطاع التجاني بتجربته الصوفية أن يقربنا من معنى الصدق والإخلاص لذات الحق في تعاطي الفعل ظاهرا وباطنا في الآن نفسه؛ حتى يتحقق الوفاء بالعمل لله . وفي هذا تجلٍ للمكاشفة الجمالية الصوفية التي تخترق في لغتها حدود المرئي إلى التعبير بالإشارة عن اللامرئي ، أو بحسب رأي الحلاج :" **من لم يطلع على إشارتنا لا تهديه عبارتنا** "، وفي هذا إشارة إلى مرحلة اللاوصول من غير المريدين ــ وذوي الشأن ــ الذين من حقهم انتهاج سبل اللامتناهي ، واختراق حجب المرئي.

ولقد استطاع التجاني أن يحمل في لغته معاناة البحث والتساؤل . وكل من يحاول مقاربة لغته بالمواضعة يكون قد مال عن جادة الصواب ، ذلك أن لغة المتصوف تنبع من الداخل ، وتقوم على الحدس في علاقته بالبرزخ ، من ثم تبدو غامضة في عرف المتلقي غير المتخصص ؛ لأنها لغة منزاحة عن اللغة المتداولة . والصوفية " بوصفها تعبيرا ، تشويش لنظام الكلام المألوف . ومعنى ذلك أن الصوفي لا يقيم بينه وبين الطبيعة وأشيائها علاقة عقلية ، وإنما الطبيعة عنده مجمع للرموز ، والصور ، والإشارات ، وعلاقته بهذا كله ، علاقات قلبية بالمعنى الصوفي للكلمة ."[١٧]

إن ما يميز لغة التجاني ــ كونها قائمة على الدلالة الذوقية التي تتعارض مع الدلالة الوضعية ــ هو توسلها إلى دلالات الإشارة المتعارف عليها في لغة المتصوفة ، والتي تستند إلى الإيحاء من دون اختيار ، ومن ثم يكون اختراق حجب لغة المواضعة هو النهج المتبع في معجم المتصوفة الشعري . واقتراب المعنى الغيبي ، ودنوّه من الشاعر يجعله بعيدا عن قصد الحال " **التناهي** " المستمد من الكسب والمعرفة ، والمواضعة في معقوليتها ، وقريبا من قصد المحال" **اللاتناهي** " في احتواء المطلق بلغة متفلّتة ، منسابة انسياب مريديها في عالم البرزخ الخيالي ؛ لذلك سلك التجاني مسلك الرمز ــ في لغته ــ بقصد استلهام عوالمه الغامضة

---

[١٧] أدونيس : الصوفية السوريالية ، دار الساقي ، ط١ ١٩٩٦ ، ص ١٤٢ .

بوصفها مؤشرات على الباطن الخفي ، والداخل المستتر الذي لا تستوعبه إلا الطاقات الكشفية ، وأن معجم الشاعر في مثل هذه الحال " كيان مفتوح لا تستهلكه الشروح ؛ أي أنه يكتم سرا لا يبوح به إلا جزئيا ، وبالتدرج ، كما أنه لا يبوح به إلا عن طريق الكشف ، لا عن طريق البرهان ، مادام الرمز لا يشع فحواه إلا وفقا لمبدأ التلويح[١٨]" باللغة الإشارية التي ينتج منهـــا التأمل الإشراقي.

---

[١٨] ينظر ، يوسف سامي اليوسف : الصوفية والنقد الأدبي ، مجلة الناقد ، ع ٨ ، ١٩٨٩ . وينظر ، كتابنا : الرؤيا والتأويل ص ٦٩ وما بعدها .